محمد سعيد بن عبد المقصود خوجة

أ. د. محمد بن سعد بن حسين
كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة

عندما يكون الحديث عن الملك عبد العزيز ورجاله العاملين معه يجد الباحث نفسه في خضم من الأعمال الباهرة الناجحة التي يتطلب الحديث عنها أزمنة طوالاً، وأسفاراً من المدونات.

من هنا نجد دارة الملك عبد العزيز أحسنت أيما إحسان حين قسمت جزئيات البحث ونوعت شخصيات الباحثين لتقدم بذلك مادة غنية في أيديهم تكون خير عون لهم، وخير مستمد في تاريخ هذا الرجل العبقري الموهوب الملك عبد العزيز رحمه الله.

من هنا لم يكن من شأني الحديث عن الملك عبد العزيز وبطولاته ولا عن إنجازاته الضخمة في مختلف ميادين الحياة.

حسبي إذًا الحديث فيما وُكلَ إليّ الحديث فيه وهو (محمد سعيد بن عبد المقصود خوجة). مبتدئًا على بركةَ الله آملاً منه وحده العون والتسديد، ، ،

دخل الملك عبد العزيز -رحمه الله - الحجاز عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م، وكان فيه ثلة من شباب الحجاز الذين ساءهم موقف الملك حسين منهم حيث صدهم عن

دواوين الحكومة، وصد أقلامهم عن الصحافة مستعيضًا عنهم برجال وافدين، وعن أقلامهم بأقلام وافدة، فلما جاء الملك عبد العزيز -رحمه الله- فتح لهم أبواب العمل، ولأقلامهم صفحات من صحيفة (أم القرى) التي أنشأها في مكة المكرمة في١٢ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ، الموافق ١٢/ ١٢/ ١٩٢٤م، وكان محمد سعيد عبد المقصود خوجة أحد أولئك الشباب؛ بل إنه كان أسرعهم مبادرة واستجابة وتفاعلاً مع العهد الجديد، وكأنه ينظر إلى المستقبل بعين بصيرته النافذة.

وفي هذا العهد نشط شباب الحجاز وبدأوا يكتبون المقالات، وينظمون القصائد، ويُنشئون الخطب، على نحو ما تقرأه في (أدب الحجاز) و (المعرض) و(وحي الصحراء) وقد حوى هذا الأخير مختارات جيدة من الشعر والنثر تعطي صورة واضحة عن النشاط الأدبي الذي عمر به منتصف القرن الرابع عشر الهجري.

وعلى أي حال؛ فإن عصر خوجة كان عصر يقظة التقى فيه القديم بالجديد، ودبت الحركة والنشاط في جميع جوانب الحياة في هذه البلاد، وكان العبء في ذلك على كواهل الناشئين؛ غير أن إقبال الحكومة السعودية، وبذلها في سبيل تطوير حياة المجتمع لم ير سبل الأخذ بأسباب الازدهار.

استثمار الكفاءات:

كان الملك عبد العزيز يقدر الرجال العاملين المخلصين حتى وإن كانوا ما زالوا في مقتبل الشباب.

وكان الشاب محمد سعيد ممتلئًا بالحيوية والنشاط، مقبلاً على العمل بكل جد واجتهاد. وكانت المطبعة التي أسسها الأتراك في مكة المكرمة، واستولى عليها الملك حسين، مكونة من آلة واحدة تدار باليد لتؤدي مهمتها في العهد الجديد، وتطبع صحيفة (أم القرى)، فالمطبعة والصحيفة محتاجتان إلى نموذج من الرجال يتحلى بالصبر والجلد والإخلاص وحب التطوير، فوجد الملك عبد العزيز في

محمد سعيد الشخص الذي يمكن الاعتماد عليه في هذه المهمة على الرغم من حداثة سنه. وكان إذ ذاك في الحادية والعشرين، ومع ذلك أسند إليه الملك عبد العزيز أمر تطوير هذه المطبعة، وتسيير الصحيفة، فعينه مديراً للجريدة ومطبعتها وكان ذلك في عام ١٣٤٥هـ.

محمد سعيد من شواهد فراسة الملك عبد العزيز:

إن شواهد فراسة الملك عبد العزيز - رحمه الله - تطالعنا كلما قلّبنا صفحات هذه البلاد، مما لا يحتاج إلى شيء من تأكيد، لكننا نذكره هنا للمناسبة، وهي إسناده إدارة صحيفة أم القرى ومطبعتها إلى هذا الشاب الذي يدرج في الحادية والعشرين من العمر، فما الذي استطاع هذا الشاب تقديمه لهذه الصحيفة ومطبعتها.

لقد عُيِّن مديراً لجريدة أم القرى ومطبعتها سنة ١٣٤٥هـ(١).

وكان يقبل على عمله الجديد بنشاطه المعهود، وأخذ على عاتقه تطوير المطبعة بعد أن سماها «مطبعة الحكومة» وأرسل بعثتين إلى مصر: الأولى في أول عام ١٣٧٥هـ ومهمتها إجادة فن الطباعة والتجليد، والثانية في آخر العام نفسه ومهمتها الدراسة في معمل الطوابع الزنكوغراف، وكان لهاتين البعثتين أثر كبير في تطوير فن الطباعة إلى ما أضافه إلى أجهزتها من إضافات.

أما التحاقه بالحسبة- هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- فكان في عام ١٣٥٠هـ(٢)، وهو أول من التحق بها من أهل مكة، وكان الناس يعجبون من أمر هذا الشاب الطويل، الأبيض الوسيم، العصري الأديب، الذي يدور على أرباب المحلات ويلزمهم بالقيام إلى الصلاة، وذلك لأنه ماكان يلتحق بهذا العمل إلا من جاوز مرحلة الشباب، وكان إذ ذاك في السادسة والعشرين. وظل مديراً للجريدة والمطبعة إلى أن اشتد به المرض عام ١٣٦٠هـ، فأناب مكانه في الإدارة الشيخ عادل ماجد كردي، ورحل إلى الطائف حيث نصحه الأطباء بالإقامة هناك وأنزل في

قصر الشيخ يوسف ياسين، حيث توفي هناك - رحمه الله - بعد مغرب أحد أيام الخميس من عام ١٣٦٠هـ.

وكان قد شرع في إقامة مبنى جديد للمطبعة والصحيفة يكون أرحب وأكثر ملاءمة لمتطلبات هذين العملين.

وكان الملك عبد العزيز يثق فيه ويعرف حسن نياته وإخلاصه في العمل، ولذا كان سريع الاستجابة لاقتراحات الرجل. ومن تقدير الملك عبد العزيز له أن أجرى لأبنائه بعد وفاته مرتبًا تقاعدياً فكان محمد سعيد أول من أُجْرِيَ له مرتب تقاعدي.

ولقد عرف صاحبنا الحياة واستقبل التعليم في أيام كانَ يرى كل مامن حوله مشوبًا بالعجمة إن لم يكن جميعه أعجمياً.

فلقد دخلت اللغة التركية الدواوين الرسمية، والمطابع، والمكتبات، والصحف، مع قلة هذه الوسائل وهزالها، ثم كان حزب الاتحاد والترقي الذي كان يحاول فرض آرائه وأهدافه على الناس، وفي عام ١٣٣٤هـ انتهى عهد الأتراك في الحجاز، وبدأ العهد الهاشمي؛ ومع أن دبيب الحياة في الوسائل التثقيفية من مدارس وصحف ومطابع ونحوها كان بطيئًا هزيلاً، إلا أن البون كان شاسعًا بين العهدين التركي والهاشمي.

وفي عام ١٣٤٣هـ بدأ العهد السعودي في الحجاز، العهد الذي وحدت فيه البلاد وباتت بنجوة من الحروب وويلاتها، ومن أطماع الطامعين الذين يرهقون بنزواتهم العباد، ويمزقون بأهوائهم البلاد، فيسود الفساد والاستبداد - لقد انتهى ذلك في العهد السعودي فاستقرت الأحوال وهدأت النفوس، وأخذ الناس يصلون العمل بالعمل، والجد بالجد ليلحقوا بالركب مما جاورهم من البلدان. فانتشرت المدارس والصحف والمطابع وتقدمت أساليبها.

ومما كان له الأثر البالغ في اليقظة الأدبية، أمر الملك عبد العزيز - رحمه الله - بإلغاء الحظر ورفع القيود عن الكتب والصحف والمجلات الوافدة، تلك التي منع دخولها الحجاز فيما قبل العهد السعودي، ولذا كانوا في تلك الأزمنة يتلقفون ما

يهرّب منها فيجتمعون على قراءتها إذا كانت صحفًا، ويتبادلونها إذا كانت كتبًا ومجلات(٣) .

شيء من صفات محمد سعيد:

كان - رحمه الله - جم التواضع ومن دلائل تواضعه أنه لم يثبت له ترجمة في كتاب (وحي الصحراء) مع أنه أثبت ترجمة لزميله وصديقه عبد الله بلخير وهو أصغر منه سنّاً، وكان بلخير لا يزال طالبًا، ومن ذلك أيضًا تجنبه فضول الكلام فيما اطمأن إلى وفرة البحوث فيه، ومنه عدم حديثه عن الأدب الجاهلي في الحجاز في مقدمة كتاب (وحي الصحراء)، ومن جميل صفاته العلمية أنه لا يكابر في الباطل، ولا يستمر في قول قاله، ثم ثبت له عدم صحته، ونضرب على ذلك مثالاً بقوله في صدر بحثه عن مكان (الحجون) وتحديده إياه : «قلت: إني لآسف على ما بدر مني في الهامش الثاني من القسم الرابع من بحثي المياه بمكة المنشور في العدد ٥٢١ من جريدة أم القرى ما نصه : (أما الآن فقد تغير الوضع، فأصبحت المياه تسير من القبة في قناة واحدة حتى تصل إلى المقسم الذي فوق الطريق المرتفع على يسار الداخل إلى مكة والطريق هذا هو الحجون وكنت يوم ذاك معتقداً صحة هذه النظرية ولكنني لما قمت بالبحث الدقيق اتضح لي أني واهم في نظريتي فأوجبت عليّ الحقيقة تصحيحها وأني أسحب كل ما قلته عن الحجون وأثبت ما يأتي بدلاً منه)» .

وكان -رحمه الله- يحب النظام في كل شيء، ومنه إذا تناول بحثًا تاريخيّاً جعل الحديث فيه يسيراً مسلسلاً من بداية وجود موضوع البحث إلى عصر الباحث أو إلى عصر توقف تاريخ الموضوع، تشهد بذلك بحوثه في :

أ - الأدب في الحجاز .

ب - المياه بمكة .

ج - الحجون .

د - دار الندوة .

ورغم ما عثرنا عليه من أخبار الرجل؛ فإن الشيء الكثير قد فاتنا بدليل ما يرد في كتاباته من إرشادات إلى شيء من أحداث حياته، فمن ذلك ما ورد في صدر حديثه عن دار الندوة، «وأنا صغير إذ ذاك على أثر جملة نقلتها إليه عن بعض أساتذة المدرسة من أن دار الندوة هي محل المقام الحنفي ففند أبي هذا الرأي قائلاً إن دار الندوة كبيرة جداً إلى آخر باب الحرم المعروف اليوم بباب الزيادة، وأطلعني على بعض المصادر التي تؤيد دعواه، أذكر ذلك جيداً، وأذكر الحوار الذي دار بيني وبين الأساتذة حول ذلك وكانت النتيجة أن أصر الأستاذ على أن دار الندوة لا تتعدى المقام الحنفي، وأني متعنت جهول، أكذب الأساتذة، وأن النظام يقضي بضربي، فضربت ضرباً مؤلماً» وفي هذا دليل واضح على أن الرجل كان يتمتع بعبقرية فذة تجلت وهو صبي في المدرسة الابتدائية، وإلا كيف يفسر حديثه هذا مع مدرسيه، ومناقشته لهم إلى حد بلغ من إغضابه إياهم أن حكموا عليه بالضرب.

ومن المؤكد أيضاً أن أباه قد أحس هذه العبقرية فانقاد لها وإلا لما أقدم على نقل ابنه من المدرسة.

وكان أدباء زمانه ينفون عليه تفوقه عليهم، وسبقه إياهم، ولذا تألبوا عليه، ونقدوه، وعابوا عليه من كتاباته ما يستحق عليه الشكر والثناء، ومن ذلك موقف محمد راسم، ومن رمز لنفسه بالمنسف وغيرها كثير.

ولقد بلغ من حقد بعضهم أن شمتوا به حين اخترمته يد المنون وتشفوا منه.

وكان أحرى بهم على الأقل أن ينقادوا لما روي عن المصطفى ﷺ (اذكروا محاسن موتاكم) رواه أبو داود والترمذي عن ابن عمر.

ومن هذا القبيل ما هَمّش به محمد حسن عواد -عفا الله عني وعنه- على أحد أبيات قصيدته (الساحر العظيم).

وقد بحثت عن ذلك النقد الذي أشار إليه الأستاذ محمد حسن عواد - رحمه الله - فلم أعثر في الصحف والمجلات على أي شيء منه، ولم يرو لي أهل عصره منه شيئاً حتى سألت الشيخ حمد الجاسر فذكر لي أن ذلك كان في صحيفة مدرسية،

كانت تخط باليد، ويقوم على تحريرها طلاب المعهد السعودي الذين طلبوا من الأستاذ محمد حسن عواد أن يكتب لهم كلمة تنشر في صحيفتهم، فكتب لهم نقداً للأستاذ محمد سعيد عبد المقصود(٤)، وقد حوكم العواد في المحكمة الشرعية على ذلك النقد وأدين عفا الله عنا وعنهم.

والواقع أنه لا يمكن لأي شخص أن يتصور دور(خوجة) في الإصلاح الفكري والاجتماعي إلا من أتيح له قراءة الصحف والمجلات التي كانت تصدر في زمانه، ذلك أن تلك الصحف تنطق بالدور العظيم الذي كان لذلك الرجل الذي وقف حياته وكل طاقاته في سبيل الإصلاح، وكان حرياً أن ينال حقه من الذكر والتمجيد، لكنه كان يلقى من مزامنيه من كان يقف في وجه أعماله ثم لقي منهم وممن أتى بعدهم إغفالاً وإهمالاً.

لقد كان مخلصًا كل الإخلاص لأمته حكومة وشعبًا، وكان يقضي وقته في خدمة هذه الأمة، ويتفانى إخلاصًا في العمل الذي ائتمنته عليه الدولة، فلقي التقدير من الملك عبد العزيز غفر الله له، غير أن إخوانه من الأدباء غفلوا عن حقه عليهم.

موقف مزامنيه منه:

لقي الأستاذ محمد سعيد عنتًا من أهل زمانه وبخاصة زملاؤه الأدباء، فلقد تحاملوا عليه وتجنوا في نقدهم له، وأسَفُّوا فيما كتبوا، في حين كان مترفعًا في لفظه وأسلوبه، وليتهم وقفوا عند هذا الحد بل راحوا يغرون صحيفة (صوت الحجاز) برمي مقالاته في سلة المهملات. والدليل على صدق هذا أنه ذكره في مقال نشره في (أم القرى) رداً على المنسف بعنوان «الغربال ومفتقدوه» حول مقال المنسف.

وذكر في إحدى مقالاته أنه ينوي أن يطبع المقالات التي كان ينشرها بتوقيع الغربال في كتاب يضم فيه إليها مقالات الناقدين له، فعاجلته المنية، وبدد الضياع ما كتب وجمع إلا ما حفظته الصحف.

الصحافة والطباعة والمكتبات:

ليس بالعجيب أن يهتم محمد سعيد خوجة بهذه الوسائل الثلاث لا لكونها من أهم وسائل التثقيف والتنوير وحسب ، وإنما أيضًا لا تصال عمله بها فهو مدير صحيفة «أم القرى» ومطبعتها وله سهمه في الميدان الصحفي .

ثم هي من العلامات البارزة في رقي المجتمع الذي يسعى في إصلاحه سعيًا حثيثًا ، ومن منطق هذه الأهمية عني الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود بالحديث عنها ، إذ كتب على الصحافة مقالاً نشره في سنة ١٣٤٧هـ ، أتبعه بكلمة عن المكتبات .

وفي عام ١٣٥٧هـ ، فصل فيه الحديث نوع تفصيل عن الطباعة في الحجاز .

وتعد مقالاته هذه ، رغم قصرها وإيجازها ، من أهم ما كتب عن الصحافة والمكتبات والطباعة في الحجاز ، وبخاصة أن الرجل كان يتحدث حديث العارف بهذه الأمور ؛ لأن عمله مديرًا لمطبعة «أم القرى» وصحيفتها جعله أعرف بتاريخ هذين المرفقين .

ثم إن مقالاته كانت تلقى اهتمامًا من أهل زمانه ، يدل على ذلك الاستدراك الذي استدركه عليه في موضوع الصحافة الشيخ محمد ماجد الكردي .

ويبدو من عبارات الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود أنه يحترم الفكر وأهله ، ولا يرى حرجًا في نشر ما يستدرك عليه الآخرون ، وهذه صفات أولي الفضل المتحلين بأخلاق العلماء(٥) .

الإصلاح الاجتماعي:

كان محمد سعيد مذ كان صبياً ينفر من ذلك التباين الاجتماعي الذي كان عليه المجتمع المكّيّ ، وكذلك كان المجتمع المدني والجدي(٦) . فلما جاء العهد السعودي الجديد المتسم بالانفتاح المتعقل والانضباط الجاد ، وجد محمد سعيد فرصته حين استطاع حمل القلم فبدأ الدعوة إلى الإصلاح لافيما يتعلق بالتباين الاجتماعي

وحسب؛ بل شملت دعوته الإصلاحية جميع ميادين الحياة في ذلك المجتمع، وهذا هو أوسع باب طرقه حيث عالج فيه كثيراً من مشكلات المجتمع وأدوائه، وتحدث عن شئونه الخاصة والعامة؛ يجول في حياة المجتمع، يدعو حينًا وينصح ويرشد حينًا آخر، ولم يعِ موضوعًا إلا طرقه، فتارة نجده يتحدث عن اللبس والزي في مدارس البنين، فيدعو إلى توحيد زيهم بحجة أمرين أساسيين:

أولهما: المظهر العام، فإن ظهور الطلبة في زي واحد يعطيهم نظرة اجتماعية خاصة.

وثانيهما: أنه يكون مظهراً من مظاهر التساوي، وفي هذا ما فيه من طمأنينة نفسية تنعكس آثارها على حصيلتهم العلمية.

ومن تلك القضايا مسألة المرأة، وفي هذا الموضوع تحدث عن الزوج والزوجين، ثم عن المرأة في الحجاز ومبلغ محافظتها، ودورها في المجتمع والبيت، ثم ما امتازت به عن النساء في البلدان الأخرى، وكان في ذلك يطرق حينًا أموراً تعد بدعًا في مجتمعه كدعوته إلى أن يجتاز الرجل فحصًا طبيّاً يثبت صلاحيته لإنشاء أسرة، كما يثبت لياقة الرجل البدنية.

ويتحدث عن الأخلاق فتدفعه ثقافته وحرصه على عدم مس مشاعر الآخرين إلى أن يجعل نفسه موضع الملحوظات التي طرقها في أحاديثه فيلوم أمته أفراداً وجماعات على التهاون في ميدان الأخلاق، ويحملهم جزءًا من المسئولية؛ لأنهم لم يقوموا بدورهم في بناء الخلق الفاضل في نفوس الناشئين.

وقد درس ابن عبد المقصود العادات والتقاليد بعد أن نظر إلى واقعهما في مجتمعه نظرة المصلح الغيور فساءه كثير منها، فأقبل عليها بفكره وقلمه وأخذ يتتبعها مثنيًا على حسنها، مشنعًا على سيئها، داعيًا مجتمعه إلى إصلاح ما اعوج من عاداتهم وتقاليدهم، وكتب في ذلك كثيراً جداً.

ونود أن نشير إلى شيء منها، لا لأهميتها في حياة مجتمعنا فحسب، وإنما لأنها في أيام الرجل كانت بداية داء يصل سريانه في جسم مجتمعنا حتى بات

علاجه عصياً، فمن ذلك حديثه عن الألفاظ التي اتخذها الناس عادة في حديثهم رغم كونها لا تمت إلى لغتهم بسبب، وإنما هي ألفاظ وفدت علينا من الخارج وكان يمكن أن يستعمل بديلها في اللغة العربية مثل (ألو - تلفون - سنترال) وما أشبه ذلك.

ومن ذلك أيضًا حديثه عن الشوارب واللحى والتواليت والعمامة ولست أدري ما الذي سيقول (خوجة) لو عاش في زماننا، حيث شاع فيه بشكل واسع حلق اللحى، وأساليب إرخاء الشعور على نحو ينطبق عليه قول الدكتور حسن جاد:

من مجيري من الأُولى واللواتي

حـرت فـيـهم بين الفـتى والفـتـاة

وكان كثير من أهل عصره لا يوافقونه على هذا المنهج الإصلاحي، وربما جهروا بذلك في الصحف على نحو من موقفهم في حديثه عن العمامة - مثلاً، ومنه أيضًا تلك الكلمات التي تناثرت في الصحف مهاجمة (الغربال) وهو الذي كان يوقع به في كتاباته.

ووصف مقالاته في العادات والتقاليد يطول، ويجزينا عنه ما يفضي إليه من طول قد يُسئم من يقرأ ما نكتب.

وأحاديث(خوجة) عن العادات والتقاليد تظل جديدة ما بقيت بقايا من تلك العادات، غير أنا نجد كثيراً من العادات والتقاليد التي عالجها من مقالات لم يستفحل أمرها ويستطير شرها إلا في زماننا، من ذلك ما أشرنا إليه آنفًا، ومنه أحاديث عن التجار وعاداتهم. فلقد عالج في كلماته عن التجار حال أولئك الذين يقدمون على التجارة برأس مال ضعيف فيفضي بهم ذلك إلى الغش والخداع والمماطلة والمخالفات التجارية الكثيرة.

ومما طرقه من عادات التجار الغمز واللمز، ثم إسراف أبناء ذوي الأموال في الإنفاق إسرافًا جر إلى آباء بعضهم الإفلاس، وهذه مشكلة كان منشؤها فسادًا في التربية، كما أشار إلى ذلك (خوجة) وهو في أحاديثه هذه لا يغفل الإشارة إلى

عادات الصالحين من أهل هذا الميدان، غير أنه يركز كثيراً على العادات الفاسدة تحريًا منه لسبل علاجها.

ومن مقالاته الهادفة التي كانت تناسب زمانها، ولكن لم يبق لها في زماننا إلا دلالة تاريخية لجوانب من الحياة والفكر والعمل عند أسلافنا ما كتبه حول مشروع القرش الذي اقترحه ووضع نظمه ثم دعا قومه إلى أن يباشروا العمل فيه.

فقد وضع نظامًا لمشروع يقوم على أساس يسهم فيه كل فرد من المجتمع بقرش يدفعه في كل يوم لمدة معينة، ثم تجمع هذه القروش ليفُتح بها مشروع صناعي، تستثمر فيه طاقات الشباب وقدراتهم الجسمية والفكرية، ثم عرض هذا المشروع على رجال الفكر في الحجاز، فجروا معه جادين أو لاهين، لكن شيئًا من ذلك لم يتم، لأنهم لم يتفقوا على الرئيس، وأمين الصندوق، فلم ينجح المشروع لعدم توافر رأس المال بسبب عدم الاتفاق. وهذه مشكلة انتهى زمنها، فقد توافرت الأموال وصارت الدولة تبذل الإعانات لكل ذي مشروع، ولم يبق على الطامعين لمثل هذا العمل إلا أن يصدق مع نفسه، ومع الدولة التي ضمنت للعاملين كل ما يهب لهم أسباب النجاح. وأهم الأسباب في فشل ((مشروع القرش)) الذي أيده هو المثالية الموغلة، حيث أراد ألا يكون للمسهمين نصيب في رأس المال، وأن المسئول عنه المنتجون، ولا يحل إلا بأمر الحكومة، وتعود ممتلكاته إلى بعض الهيئات العامة مثل أمانة مكة المكرمة والأوقاف.

ومما ورد في مقالاته في هذا الباب الحديث عن مشروع التعليم الليلي، ومما ذكره استئذان الحكومة، ويظهر لقارئ مقالات(خوجة) أنه كان يعاني من مزامنيه الأمرّين، وهو يدعو إلى إصلاح أوضاعهم الفكرية والاقتصادية والعمرانية. ومما يجب التنبيه عليه أن مثل تلك الأعمال كانت في زمن لم تفتح فيه الكنوز على خزانة الدولة. ومما يتصل بذلك- أعني معالجة (خوجة) لمشكلات مجتمعه- حديثه عن العمل وشرفه ومنزلة العامل الجاد في مجتمعه، وموقف الإسلام من العمل

والعمال وتشجيعه، وذلك معروف في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ولقد مني الحجاز ببعض الحاقدين المغرضين الذين كانوا يعودون إلى بلادهم فيشرعون في الطعن والذم والتشنيع، ربما ليقال إنهم لحظوا أشياء فاتت غيرهم وكانوا ينشرون غثيانهم في صحف بلادهم.

وكان أن تصدى الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود لكشف هذه الشبهات بمقالات، من جميل ما فيها . . . . أن القارئ يجد فيها صورة جديدة للمجتمع الذي عاش فيه كاتبه، ذلك أنه يتحدث لك تارة عن الزواج وعاداته وتقاليده، وتارة أخرى يصف لك لبس القوم وزيهم، وثالثة يتحدث عن طرق المعيشة ومصادر الكسب في هذه البلاد المقدسة في تلك الأيام التي سبقت انفتاح أبواب الخير على هذه البلاد، ثم ما إلى ذلك من العادات والتقاليد التي يندر- جداً- أن تجد حديثًا عنها فيما كتب الآخرون.

ولعل اتجاه (خوجة) إلى وصف العادات والتقاليد إنما كان من منطلق حبه لإصلاح مجتمعه، وهذا أمر معروف في سيرته- رحمه الله - غير أن أحدًا لم يجل هذه الجوانب الخيرة في حياة الرجل بعد.

لقد تحدث عن وجوه الإنفاق فأشار إلى الإسراف، ثم دلف إلى حضّ ذوي اليسار على الإنفاق في وجوه الخير.

وما تحدثنا عنه من معالجاته الاجتماعية لا يعني إخراج ما عدا ذلك من هذا الميدان الاجتماعي، وذلك أن أعمال محمد سعيد الفكرية كلها اجتماعية إلا ما قل منها، وهو قليل لم يخل من التفاتات اجتماعية أيضًا.

العادات والتقاليد(٧):

ينطلق محمد سعيد في حديثه عن العادات والتقاليد من طريقين؛ أولهما: ديني، وثانيهما: اجتماعي، وهو في هذا يهدف إلى الإصلاح الاجتماعي ويدعو إليه ويلح في ذلك حتى عدّ بعض خصومه هذا من عيوبه، والعجيب أن يعاب المرء

بما هو جدير بأن يثنى به عليه، ولكن كما قال أبو الطيب المتنبي:

ومن يك ذا فم مـــر مـــريض
يجـــد مـــراً بـه الماء الزلالا

ومن هذا المنطلق الاجتماعي كان حديث خوجة عن التحية والسلام، حيث عاب على أبناء مجتمعه هجر السنّة فيه، والصيرورة إلى ما سواها مثل: صباح الخير، ومساء الخير، ومرحبًا، والتحية بالإيماء بالرأس أو اليد وحسب.

حفل عشرة ذي الحجة(٨):

وكانت له نشاطات اجتماعية وأدبية، منها أنه كان يقيم في يوم ١٠ من ذي الحجة حفلاً كبيرًا (بمنى) في منزل الشيخ ماجد كردي؛ لأنه كان يحتوي على صالة واسعة جداً، وكان يدعو إلى هذه الحفلة التي يقيمها سنويا كبار شخصيات الحجاج من علماء وأدباء وسياسيين وعسكريين، وقد أطلق عليها ((حفلة التعارف))، وكان يطبع لها بطاقات بهذا العنوان تسلم لكبار الشخصيات، وكان يحضرها أيضًا وجهاء البلاد السعودية، ويتولى افتتاحها بخطبة أدبية بليغة فيها ترحيب بالحاضرين والوافدين، ثم يتولى تقديم الخطباء والشعراء واحدًا بعد الآخر، وكان رجال الفكر من المسلمين العرب وغير العرب يقبلون على هذه الندوة ويعدونها بمثابة احتفال العيد والحج.

ويبدو أن السبب في إعراض الأدباء عن الإشادة بالشيخ محمد سعيد والاهتمام بتراثه أنه كان المنافس الأول في ميدان الفكر والإصلاح للشيخ محمد سرور الصبان الذي كان أقوى نفوذًا منه.

ويقول الشيخ محمود حافظ: «ومع هذا بلغني أن الشيخ محمد سرور الصبان قال بعد وفاة الشيخ محمد سعيد: (لقد خسرت البلاد بوفاة هذا الرجل خسارة كبيرة، ربما أحسها أنا أكثر من غيري)».

التربية والتعليم:

عندما يتحدث محمد سعيد عن التربية والتعليم؛ فإنه يتحدث عن أشياء كثيرة، عن المدرسة مبنى، وأساتذة، ومناهج، وأساليب تعليم، ومنافذ إنفاق، وعن المنزل، والأسرة وكيف تُنشئ وتربي. وعن المرأة وتعليمها، وعن المجتمع وموقفه من التربية والتعليم ووسائلهما.

وهو لا ينسى ما تبذله الدولة في ذلك على الرغم من شح مصادر دخلها إذ ذاك، ومع هذا فقد أنشأت كثيراً من المدارس والمعاهد، وبذلت العون للمدارس الأهلية التي كانت قائمة ((كالفلاح)) و((الصولتية)) وهذا ما أشاد به صاحبنا.

وكان محمد سعيد قد نشأ في بيت علم وعلى يد رجل تعليم، فلقد كان أبوه أزهرياً وفد على الحجاز وامتهن التدريس، ولذا لقب (بخوجة)، كما هي عادة أهل ذلك الزمان في تلقيبهم من يلبس الجبة والعمامة ويمتهن التدريس، وكان أسلاف خوجة من العرب النازحين إلى مصر، فوفوده على الحجاز عودة إلى موطن أسلافه. وفي مكة المكرمة كان مولد ابنه محمد سعيد الذي عني أبوه بتربيته، وغرس حب العلم والعربية في نفسه، ومن هنا كانت عناية هذا الابن بالتربية والتعليم وإدراكه ما بينهما من تلازم جعل كمال كل واحد منهما مرتبطًا باقترانه بالآخر، فجد في الدعوة إليهما وإصلاحهما.

لقد كان الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود من الرجال المثقفين الذين هيأهم استعدادهم لأن يطرقوا بأقلامهم كل باب وأن يسيروها في كل طريق من طرق الإصلاح، وذلك ما جعل الكثيرين من أقرانه ينفسون عليه ويتهمونه بادعاء المعرفة في كل شيء، ولو أنهم نظروا إلى المثقفين من الأدباء لشمل الحياء أقلامهم، وهذا حديث له موضع آخر، فما شأن أبي عبد المقصود مع التربية والتعليم، لقد نظر إلى مدارس زمانه فوجدها على نحو لا يكفل لها أداء رسالتها على الوجه الأمثل، فأراد أن يسهم في إصلاحها بالدعوة إليه، فتحدث عن المدرس ومهمته وما يجب في إعداده، ثم ما يطلب منه وهو يؤدي عمله من أساليب فنية وعلمية وتربوية.

وتحدث عن المدرسة والقائمين عليها، وعن النظم والمناهج، وأوضح أن ذلك كله لم يكن في مدارس الحجاز على الوجه المرضي إذ ذاك ولم يغفل عن مسئولية البيت والمجتمع وأنهم شركاء للمدرسة في المسئولية عن أجيال المستقبل، وكان لا يهمل في مسألة التعليم شيئًا حتى بنايات المدارس وطرق الإنفاق عليها.

وقد يحس القارئ لمقالته هذه أن الرجل كان يقسو على المسئولين عن التعليم وبخاصة المدرسين، وأنه كشف عيوبهم في كلمات، غير أنه كان معذوراً لأنه تيقن أن المدرسة هي الأساس الأول والمتين لبناء المجتمع الأمثل -وذلك ما ذكره في صدر حديثه- ووجد أنه من هز تلك المدارس هزآ قوياً لتستيقظ وتتنبه لمسئوليتها فتسهر على إصلاح ما فسد من أمرها، وتقوي ما كان صالحًا فيها.

ولم ينسَ المرأة في أحاديثه عن التعليم، فدعا إلى تعليمها لأن في ذلك سبيلاً لإصلاح ذريتها.

وتحدث عن الطفل وتربيته وأوضح أن المسئولية الأولى تقع على الأسرة ورأسها في ذلك (الأم) وأشار إلى دور المدرسة في تربية الطفل وأن عليها جزءًا من المسئولية، لكنه طالب بإعداد المدرسة أيضًا لهذه المسئوليات.

أما التربية التي هي جزء من التعليم في أغلبها؛ فإنه قد وسع دائرة الحديث فيها حيث تحدث عن الوقت الذي يضيع هباء عند أبناء زمانه اللهم إلا في زمن المواسم وهو محدود.

ثم تحدث عن الرياضة وهي لون من ألوان التربية البدنية إذا أحسن توجيهها عادت إلى المجتمع والفرد بخير كثير.

ومن أمثلة حديثه عن التربية البدنية حديثه عن الكرة، فلقد كتب عنها داعيًا إليها ومشجعًا عليها، حتى إذا أبصر الناس ينقسمون عليها إلى أحزاب وشيع تشتد بينها الخلافات التي قد تصل إلى المنازعات والمشاجرات نادى بوجوب التوجيه السليم لهذه الرياضة البدنية التي لم يقصد من وراء تشجيعها سوى تنمية القوى البدنية إلى ما يصحب ذلك من تنشيط القوى العقلية من طريق التفكير السريع في

الحركة المفضية إلى حصول الهدف. ومن حديثه عن الدرجات إنه يرى أن المدارس في حاجة إلى إصلاح يشمل جميع مقوماتها، ولذلك فهو يقول عنها: إن حاجة مدارسنا إلى التحمل أكثر من حاجاتها إلى الغربلة(٩).

ومنه أيضًا قوله: لقد كانت بعض المدارس مقلوبة الكيان في نظامها وتنظيمها أما الآن، فقد طرأ عليها شيء من التعديل، ولكنه يحتاج إلى عناية أكثر وترتيب أجمل.

وهو لا يقف عند حد كشف العيوب وإبراز النقص؛ بل يدعو إلى ما يسد به الخلل ويصلح به العيب ويكمل به النقص، فيقول: يجب أن نعرف معرفة تامة أن المدارس الأهلية في حاجة شديدة إلى المساعدة، وأن هذه الأزمة الخانقة قد أثرت فيها كثيرًا، ويكفي أن نرى كثيرًا من أساتذتها قد تنازلوا عن قسط عظيم من رواتبهم إزاء هذا المشروع الإنساني الجليل فما أحرانا أن نمد الأمة أيضًا بما نستطيعه من مساعدة لأن المنفعة مشتركة.

فهل نحن فاعلون ؟؟ إنا لذلك منتظرون.

ويوسع دائرة الدعوة إلى البذل في سبيل الصالح العام فيدعو المجتمع إلى الإسهام مع الدولة، وإلى البذل في كل منفذ من منافذ الخير الذي يعود صالحه على المجتمع فيقول: ونظرًا لكوننا قد أخذنا نسعى للحياة من جديد، فيجب أن يكون سعينا حثيثًا، وأن يكون سيرنا على أساس ثابت، ولما كانت المشاريع العمرانية والمؤسسات الخيرية من أهم الأسباب التي نحتاجها، والتي تعود علينا بالفائدة فيجب على كل فرد منا أن يوجه شطرًا من عنايته إليها، وبالأخص أرباب الثروة، الذين لا يضرهم ذلك، وأن الثروة التي لا تستفيد منها الأمة، والتي لا ينفق منها قسم في صالحها، وتحسين أحوالها، وترفيه حياتها، لربما يكون عدمها أحسن من وجودها.

وأن المدارس التي نضع بين جدرانها أولادنا، وأفلاذ أكبادنا، ومنح قلوبنا، ومن هم أعز الناس عندنا، والتي على ثمرتها يتوقف سير حياتنا وتقدمنا، لها علينا

واجبات يجب أن نقدمها إليها ويجب أن نعضّدها، ويجب أن نمد إليها يد المساعدة، ويجب أن نتعهدها بين كل حين وآخر لأن ذلك في صالحنا، زيادة على كونه واجبًا علينا. (والواجب لا يترك).

تعليم المرأة:

هذا الموضوع جزء من سابقه، إلا أن وضع المجتمع إذ ذاك استلزم الفصل بين الحديث عن تعليم الفتيات، إذ لم تكن هناك مدارس لتعليم البنات إلا ما هو داخل في مفهوم (الكتاتيب) وعلى نحو يسير جداً في حين كان تعليم المرأة قد نشط في بعض البلاد العربية، فأراد محمد سعيد أن يكون لفتيات مجتمعه مثل ما لفتيات تلك المجتمعات مع فارق تفرضه خصوصية هذه البلاد، ومن قوله: « لهذا يجب على فتاتنا أن تجعل نصب عينيها أنها أم، وفي يقيني أن هذه المهمة الجليلة تحتاج إلى فتيات متعلمات لتتمكن من القيام بإدارة مملكتهن الصغيرة (البيت)، وتربية أبنائهن ليشبوا على مبدأ أساسي مقدس، وعلى الشعب والحكومة التضامن والتكاتف على العناية بالفتيات الحجازيات وإعدادها إعداداً صالحًا، وذلك بإنشاء مدارس ابتدائية يكون ضمن برنامجها التدبير المنزلي والعناية الصحية والحياكة والتربية وغير ذلك مما يساعد فتاتنا على أن تُخَرِّج لنا أطفالاً مهذبين صحاحًا.

ويدهشني كثيراً ادّعاء بعض الناس أن مساواة الرجل بالمرأة في الحقوق التعليمية إخلال بنظم الحياة وخروج على الآداب العامة وإفساد لأخلاق المرأة وآدابها؛ فان ادعاءهم هذا ادعاء باطل تمحقه البراهين، وتبطله الأدلة، وقد تبين لي بعد جدال مع أحدهم أنهم يستدلون على صحة دعواهم بما يقرأونه بين آونة وأخرى في الجرائد والمجلات من تهتك بعض الفتيات الحائزات على شيء قليل من التعليم، ونرى أن من الواجب علينا الآن وقد عنينا بالكتابة في هذا الموضوع المهم وأخذنا على عاتقنا الدعوة إليه أن نبين خطل هذا الرأي، فنقول: إن فساد التربية المنزلية لايقاومه التعليم البسيط إلا نادراً، ولو أن الفتيات نشأن نشأة إسلامية،

وشبين على أخلاق فاضلة وتربية قويمة أساسها الآداب التي يأمر بها دستورنا السماوي الشريف لكُنَّ الآن في درجة عالية من الآداب والأخلاق والتمسك، بها ولتمكنت الفضائل من قلوبهن ولما كنا نرى لهذا التهتك من أثر يروى؛ بل لرأينا منهن أيضًا دليلاً صادقًا على ما نقول ونطالب به».

ومن هذا المنطلق جاء حديثه عن مسئولية المدرسة والأسرة وأنه لابد في تربية الأطفال من التقاء جهود المدرسة والأسرة لتحصل الفائدة.

ولكون الأسرة هي المنطلق الأول فقد أكد على أن تكون مؤهلة لذلك وهذا لا يعني أن المدرسة في حل من المسئولية قبل تأهيل الأسرة لذلك، ومن قوله في هذا: «ويجب قبل أن نطالب العائلة والمدرسة بهذه الأشياء، وقبل أن نضعها موضع المسئولية أن نسلح الأولى بسلاح العلم، ونسلح الثانية بالمعاونة المادية والمعنوية، أما كوننا نطالبهما بتربية صحيحة قبل أن توجد فيها المؤهلات التي تساعدها على ذلك فخطأ، وليس معنى هذا أن العائلة والمدرسة هما الآن غير مسئولتين عن ذلك؛ بل عليهما المسئولية ويجب على الأمة أن تسعى جهدها في تقديم المساعدة اللازمة أما إذا بقيت الأمة مقصرة وضعفت بكل شيء فتكون إذ ذاك قد جنت على نفسها وبيدها سددت سهام تقصيرها إلى قلوب أبنائها وأفلاذ أكبادها(١٠).

ومما يتصل بذلك قوله: «فإذا كان ما حول الطفل من الأقوال والأعمال حسنًا كانت نشأة الطفل حسنة، وإذا كان ما حوله سيئًا كانت نشأة الطفل سيئة، وعلى العائلة تلقى المسئولية الأولى وهي الحجر الأساسي في تربية الطفل ونشأته».

وهو يرى أن الكتابة في هذه الموضوعات التربوية والاجتماعية ونحوها أولى من الكتابة في الأدب الذي هو مظهر من مظاهر الترف الفكري، كما يرى بعضهم، ولذا فهو يدعو أدباء مجتمعه إلى أن يتجهوا بأقلامهم إلى هذه الميادين التي هي الأساس في حياة الأمة، ومن قوله في ذلك: «وإني آسف لبعض أدبائنا وكتابنا المنصرفين عن الكتابة في هذه الأشياء التي تهمنا والتي نحن في أشد الحاجة إليها، ولا نجني من ورائها شيئًا يذكر، ولو أنهم أعطوا المواضع التي تهمنا من عنايتهم لعاد

النفع على الأمة، والأمة كما تعلم أيها القارئ تحتاج إلى كل شيء وإلى من يرشدها في كل شيء، هذا من جهة، ومن جهة ثانية الشيء الذي يفيد وينفع أحسن من غيره وعسى أن يوفقوا إلى ذلك».

ولست أراه محقّاً في التهوين من شأن الأدب الذي هو الوسيلة الأقوى في الدعوة إلى الإصلاح، وإن كان محقّاً في لوم أهل زمانه على الانقطاع للأدب المجرد من خدمة الصالح العام.

اللغة ولعبة الكرة (١١):

على الرغم من أن لسان صاحبنا لم يسلم من الخطأ اللغوي؛ فإنه كثير الإلحاح على صحة اللغة وعلى صيانتها، ومحاربة الألفاظ الأجنبية التي أخذت تسري في ألسن الناس وبخاصة الشباب، وأول ما لحظ هذا في لغة أرباب تلك الرياضة (الكرة) التي شجعها ولكنه يحارب فيها شيئين.

أولهما: هذه الألفاظ الأعجمية التي أخذوها متباهين باستعمالها.

وثانيها: ذلك الصراع العنيف الذي نشط بين الفرق الرياضية على نحو أوجد عداوات وحزازات بسبب التنافس على الفوز، فما الذي يمكن أن يقوله لو اطلع على ما يحدث في هذه الأيام؟

لقد تحدث عن الكرة بمثل قوله: «وبقدر ما سررت بهذه الرياضة في بلادنا، وبقدر ما أطلب تشجيعها من مواطنينا، استأت من استعمالها لألفاظها الأعجمية وأطلب مقاومتها، وقد سمعتم مؤخراً أن بعض الأدباء في جدة عربوا جميع ألفاظها واستعملوها، وإني أشكر لأولئك النفر - تلك العاطفة، وأغبطهم على هذا الإحساس والشعور الذي دفعهم لذلك الذي ترك في نفسي أحسن الذكرى لهم، وإني أطلب من الحجازيين، أن يحذوا حذو إخوانهم فيستعملوا العربية بدلاً من غيرها، وبذلك يخدمون لغتهم ووطنهم، كما أني أطلب من جريدة ((صوت الحجاز)) وهي التي نعلق عليها آمالاً عظيمة -حققها الله- أن تعتني بالاستحصال

على هذه الألفاظ ونشرها، لأنها خصصت منها قسمًا للرياضة الأمر الذي جعلنا نكبر لها هذه الخدمة، ونقدر لها هذه المساعي، وبذلك تكون الفائدة أعم لأن المرمى الذي نرنو إليه جميعًا هو الخدمة الحقة للوطن والأمة».

وذلك بعدما أشار إلى أن هذه اللعبة عربية الأصل اختلف أسلوبها فبدلاً من أن تضرب بالصولجان صارت تدفع بالأقدام، ومما استدل به على قدمها هذا البيت:

والخيل تلعب بالقتلى سنابكها
لعب الصوالج يوم الروع بالأكر

البحث التاريخي:

نظر الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود إلى التاريخ نظرة فيها اهتمام واعتبار، فقرأ كثيراً من كتب التاريخ مثل البداية والنهاية لابن كثير، والكامل لابن الأثير، والمروج للمسعودي، والعبر لابن خلدون.

وكان يهتم كثيراً بتاريخ البيت الحرام، ومن هنا كان منطلقه في عمله على إخراج تاريخ الأزرقي وأمثاله.

ومن دلائل احترامه لكتب التاريخ أنها كانت في المقدمة مما أشار به على الناشئة، ومع هذا الاهتمام الكبير بكتب التاريخ؛ فإنه يكتب فيه مثل ما كتب في الأدب، وإن كان قد التقى مع الأستاذ أحمد السباعي واتفقا على تأليف كتاب شامل لتاريخ مكة والبيت الحرام، ولكن لم يكتب الله لأبي عبد المقصود أن يكون له فيه سهم، وقدر أن يستقل به أحمد السباعي إن لم يكن قد تم في حياة محمد سعيد.

ومن مباحثه التاريخية:

المياه في مكة، تاريخ الحجون وتحديد مكانها، تاريخ دار الندوة وما تعاورها من أحداث، السيول في مكة، خرافة فوران بئر زمزم.

وهي بحوث أقرب إلى معاجم البلدان منها إلى التاريخ، ولكنها على أي حال

قريبة من التاريخ قوية الصلة به.

ومما يتصل بحديثه عن السيول في مكة المكرمة، وعن خرافة فوران بئر زمزم كانت السيول في مكة تشكل مشكلة كبرى كثيراً ما عانى منها سكان أم القرى، وكثيراً ما غشيت البيت الحرام فأحدثت فيه، وفي الكعبة المشرفة أضراراً جسامًا(١٢).

واستمر خطر السيول في القرون الماضية قائمًا، لا يفيق أهل مكة من أحد أحداثه حتى يتبعه الآخر حتى جاءت الدولة السعودية فعدلت بعض الأودية عن الحرم، ونظمت مجاري السيل النازلة من الجبال فصار الحرم المطهر والكعبة المشرفة في مأمن من أخطار السيول، والحمد لله.

ولقد شهد أبو عبد المقصود آخر أحداث زحف السيول، إلى البيت الحرام فوصفه وصفًا حسنًا، لكنه كان يستصحب التاريخ في الحديث عن الأماكن كأبواب الحرم الشريف وما إليه، الأمر الذي أعطى حديثه صبغة علمية.

محاربة الخرافات وتصحيح المفاهيم:

كان ابن عبد المقصود يرقب-دائمًا- أحداث مجتمعه وأوضاعه فيبادر إلى مدح الحسن ويشنع على القبيح، ومن ذلك حديثه عن خرافة فوران بئر زمزم(١٣) التي كان النفعيون يستخدمونها في العبث بعقول الناس واستدرار المال من أيديهم. لقد كتب عن هذه الخرافة موضحًا بطلانها، مشنعًا بالمروجين لها وداعيًا الناس إلى نبذها والاتجاه إلى العمل الصالح. ومع أن هذه الخرافة قد انتهت شأن جميع الخرافات إلا أن ذكرها مهم لسببين:

١ - أنها تصور وضعًا كان قائمًا فعلاً.

٢ - ثم إنه قد ورد لها ذكر في بعض كتب التاريخ.

من أجل هذا وجدنا خوجة يعود إلى التاريخ فيناقش ما ورد فيه عن هذه الخرافة مبينًا بطلانه.

ويعود إلى الحاضر فيصف ما كان يجري في بئر زمزم في زمانه وصف المشاهد مثبتًا بطلان الدعوى في هذه الخرافة التي تقول إن عين السلوان في المسجد الأقصى تتصل بماء بئر زمزم مرتين في العام الأولى في العاشر من الشهر المحرم، والثانية في ليلة منتصف شعبان فتفور بئر زمزم بماء يُحس حلاوته العارفون والأولياء.

وعلى أي حال فقد انتهت هذه الخرافة وما أشبهها في العهد السعودي.

الغربال:

عندما عزم محمد سعيد خوجة على تتبع ما في المجتمع من عادات وتقاليد يشيد بصالحها ويكشف زيف طالحها اختار لفظًا يرمز به إلى نفسه وهو ((الغربال)).

ولا نريد تتبع ما جاء في هذا الباب وإنما نضرب مثالاً بإحدى القضايا: كتب خوجة مقالات عن الزواج كان فيها يبحث عن الأسباب التي بها تكوّن أسرة قوية عاطفيّاً وجسميّاً وماديّاً، وفي إحدى هذه المقالات دعا إلى وجوب إيجاد نظام الكشف الصحي على الزوج لمعرفة صلاحيته صحيّاً، ولم يتحدث عن الزوجة مراعاة للواقع الاجتماعي إذ ذاك، فقال: «إني أقول وأكرر قولي بضرورة إخراج كشف صحي للزوج فقط، ولا أقول للزوجة معه لأسباب لا تخفى على من تدبر وأبصر- قبل عقد النكاح، لأن ذلك مفيد لنا ولازم لسلامة حياتنا، وحفظ نسلنا- ونظرًا إلى أن هذا من واجبات مصلحة الصحة؛ فإني ألفت نظرها إلى ذلك العمل اللازم، وهي أدرى بالطرق التي يمكنها أن تطبق هذه النظرية تطبيقًا يصونها من العبث؛ لأن ذلك ضروري للأمة، ومصلحة الصحة لاشك تعرف ذلك».

فرد عليه محمد راسم منكرًا هذا القول لأن مثل هذا العمل لم يظهر في أوربا فكيف يكون عندنا، ومن قوله في ذلك(١٤): انظر أيها القارئ- لا بأس ثانيًا- مقالة تحت عنوان (بحث في الزواج) تاركًا نشرتيه الأوليين في هذا البحث ناظرًا إلى الثالثة فحسب، تجد من عجائب مدركات هذا الغربال ما تدهش له أيامك إذا علمت

أنه يسعى في إيجاد ما لا يجد الغرب بحضارته، ونفاذ أفكاره، إلى إيجاد من سبيل ويسخط على عادات فينا لا تستحق منه سخطًا ليأتي بكلام آخره مفسد لأوله. . . إلخ.

وكان من الطبيعي أن يرد خوجة ولكنه ركز رده في هذه الجزئية على إنكار التبعية لأوربا بمثل قوله(١٥) : أعود بعد هذا فأستسمح خاطر الأديب لأناقشه فيما زعمه من جهة الكشف الطبي غاضاً النظر عما كتبه من تحليل شخصيتي ومعارفي، ومبلغ كتابتي لأن ذلك ليس له عندي من الأهمية بمكان ما دمت أدري بما في نفسي وما دام المثل العربي يقول : (مهما تبطن تظهره الأيام).

يقول حضرة الأديب إن الكشف الطبي غير موجود في أوربا، وأنهم حاولوا تطبيقه فلم يفلحوا، فلأجل ذلك يجب علينا أن نتركه نحن أيضًا لأن أوربا لم تسبقنا إليه، هذا معنى مارد به الأخ العزيز فيما يتعلق بالموضوع ومع كون هذا القول فيه من مخالفة للحق والحقيقة إلى أني أسلم لحضرة الأديب ذلك جدلاً وأناقشه من الوجهة الثانية فأقول أية رابطة تربطنا بأوربا؟

وما هو المانع من كوننا لا نقبل على أمر إلا بعدها؟

من الخطأ والخطأ المهلك أن نبقى مكتوفي الأيدي عن أي عمل لا تسبقنا إليه أوربا، وإذا طبقنا هذه النظرية على أنفسنا وبقينا تحت رحمة أوربا فستقضي علينا أوربا بخيلها ورجلها ونحن مفسدون في الأرض لا قدر الله(١٦).

وما كان يدعو إليه (خوجة) منذ ما ينيف على ٦٠ عامًا بات مطبقًا في كثير من أنحاء العالم، ولم يقف عند الكشف الصحي على الرجال؛ بل شمل المرأة أيضًا، وهذا من أدلة صدق ما قلنا من أن الرجل كان سابقًا عصره وهو في الوقت نفسه مكذب لما زعمه محمد راسم.

الأدب في أعمال محمد سعيد:

كان الشباب المثقف في عهد محمد سعيد يتجه إلى الأدب يجرون فيه أقلامهم

بعد ما حاولوا إشباع أفكارهم به، وذلك انقياداً لاتجاهات من كانوا يحاكونهم من أدباء العرب الذين جاءوا بعد طبقة الاجتماعيين الذين قامت على أيديهم النهضة الحديثة في تلك الأقطار، فجاء شباب الحجاز ليبدأوا من حيث انتهى الآخرون غافلين عما كان عليهم أن يبدأوا به وهو الإصلاح الاجتماعي تعليمًا وتربية واقتصادًا وعمرانًا وما إلى ذلك مما لا تقوم حياة المجتمع إلا به.

أما الأدب فيمثل حياة الترف في المجتمعات، وإن كان يمكن استخدامه وسيلة في الإصلاح؛ بل إنه الوسيلة الأقوى في ذلك.

من هنا كان اتجاه محمد سعيد اتجاهًا اجتماعياً في الدرجة الأولى.

على أنه لم يغفل عن الجانب الأدبي لإدراكه أهميته في حياة الأمة، ولذا كان له النصيب الأوفر من اهتماماته؛ بل إنه كان يدعو أدباء الشباب إلى أن يتخذوا من الأدب وسيلة في الدعوة إلى الإصلاح، ويعيب عليهم الانقطاع إلى الأدب المنفصل عن واقع حياة مجتمعه، ويدعوهم إلى استثمار مواهبهم الأدبية في ما ينهض بمجتمعه الذي يقف على أبواب عهد جديد هو عهد يقودهم فيه الموحد الباني الملك عبد العزيز. وحين نقف عند إسهامات محمد سعيد الأدبية نجدها إسهامات فاعلة في حياة الأمة تأتي على النحو الذي دعا إليه مزامنوه في البلاد العربية الأخرى، ومن هنا كان إسهامه في خدمة الأدب إسهامًا متميزًا لم يقدم مثله أديب في عصره.

فعندما ننظر في البحوث الأدبية التي كتبها ابن عبد المقصود نجد أنها تدل دلالة واضحة على أن الرجل قد بلغ مبلغًا ممتازًا في أسلوب البحث الأدبي، وحين نعرف أنه حين كتب هذه البحوث كان في الخامسة والعشرين- تقريبًا - من عمره وحين نضم إلى هذا أو ذاك ما كان عليه أدباء عصره في الحجاز في تلك الأيام من إقبال أكثرهم على التأثر بأدباء المهجر ومصر والشام وتقليدهم لهم، ومجيء أدبهم على نحو من أدب أولئك مع ما كان يعتري نثر ناشئي الحجاز في تلك الفترة من تخلخل في اللفظ والأسلوب.

عندما ننظر إلى هذا كله نجد أننا أمام عبقرية فذة خرجت على معايير زمانها،

وأتَتْ بما هو في الذروة من البحث الأدبي، فكرًا ولفظًا، وأسلوبًا، وطريقة بحث.

بدأ ابن عبد المقصود في جمع مادة كتاب (وحي الصحراء) وكان أثناء ذلك يطالع الكتب القديمة ويقرأ فيها أخبار الحجاز، ومن تلك الكتب التي ورد ذكرها فيما كتب (كتاب الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني، و(رحلة ابن بطوطة) و(العقد الفريد) لابن عبد ربه و(مروج الذهب) للمسعودي و(كتب ابن قتيبة والمبرد، وأمثالهما)(١٧) وسوى ذلك من الكتب الكثيرة التي وردت إشارة إليها فيما كتب.

وكان يجمع أخبار الحجاز في السياسة والعلم والأدب والاقتصاد والعمران ونحوها فيقوم بدراسة تلك النصوص التاريخية والأدبية، ثم يستخلص منها بحوثًا تصور حياة الحجاز في مختلف أدواره التاريخية فخرج من ذلك بسلسلة متصلة الحلقات قام بنشرها في الصحف وبخاصة في صحيفة أم القرى(١٨) ثم جعلها مقدمة لكتاب (وحي الصحراء) الذي عاونه فيه الشيخ/ عبد الله عمر بلخير.

وتعد هذه المقدمة أطول بحث أدبي عثرنا عليه لهذا الرائد، حيث بلغ عدد صفحاتها في كتاب (وحي الصحراء) أربعًا وثلاثين صفحة.

لقد صور الرجل بداية ما آل إليه أمر الحجاز حين تعاورته الفتن والقلاقل من بعد ما أهمله الخلفاء وأرباب الشأن في الدولة الإسلامية فتعاورته الأهواء وتقاذفته النزوات، وكان أحرى المواطن بالعناية وصون الكرامة.

ولم يقف ابن عبد المقصود عند العصر الجاهلي ولم يزد في الحديث عنه على ثلاثة أسطر على الرغم من ازدهار الأدب العربي فيه، ولعله أغفل ذلك لأحد سببين أولهما أن العصر الجاهلي قد حظي بعناية الباحثين قديمًا وحديثًا حتى صار أثرى العصور الأدبية بحثًا ودراسة وجمعًا وتحقيقًا، والثاني أن سلسلة تاريخ الإسلام تبدأ بعد العصر الجاهلي والله أعلم.

ويرى ابن عبد المقصود أن الشعر في صدر الإسلام قد مر بحالتين متغايرتين تمام التغاير: فهو في زمن النبي ﷺ قوي جزل، استصحب في عهده الجديد ما كان له من قوة في أيام الجاهلية، إلى ما أضافه الإسلام إلى الأدب من أفكار ومعانٍ سامية

كانت تظهر في شعر شعراء الإسلام، ثم ما نفى عنه من مستهجن الألفاظ والأساليب والأفكار الجاهلية.

وكان الصراع الفكري الذي اشتد بين شعراء المسلمين وشعراء المشركين مصدر قوة دفعت بشعر تلك الأيام إلى ميادين رحبة كان فيها تهذيب وتجويد(١٩).

أما في زمن الخلفاء الراشدين -رضوان الله عليهم- فقد تغير وضع الشعر وتبدل حاله حيث فرض الوضع الجديد المفتوح تقدم الخطابة(٢٠) وتقهقر الشعر.

وكان في بحثه يخرج الحديث عن السياسة بأحاديث الأدب وسائر شئون الحياة، وحينما وصل إلى الحديث عن الحجاز في العصر العباسي الأول أورد قول الأصمعي عن الأدب في المدينة وهو ((أقمت بالمدينة زمانًا ما رأيت قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة، وكان بها ابن دأب يصنع الشعر، وأحاديث السمر، وكلامًا ينسبه إلى العرب فسقط وذهب علمه، وخفيت روايته)).

وقد ناقش هذا القول مناقشة الرافض له محتجاً بقول الدكتور/ طه حسين في مقاله (الحياة الأدبية في جزيرة العرب) في كتابه ألوان(٢١)، وقول المتأخر ليس بحجة على المتقدم إلا إذا نصب المتأخر دليلاً مادياً. ويتدرج محمد سعيد عبدالمقصود في بحثه تحت سلسلة التاريخ يتلمس الأدب، ويستنبط الأخبار، حتى يصل في مسيرته إلى زمن تأليف الكتاب(١٣٥٥هـ) (٢٢).

وأهم ما نلحظه في بحوث الرجل، الصدق، والتجرد من الأهواء، وتحكيم ما تنطق به الأخبار والآثار، وهذا لا يعني خلو بحوثه من هنات هينات يستطيع نظر الناقد التسلل من خلالها.

فمن ذلك- على سبيل المثال- أنه لا يحيل إلى المصدر؛ بل يكتفي بذكر المؤلف حينًا، وحينًا آخر يكتفي باسم الكتاب(٢٣) دون ذكر المؤلف أو قد يذكر المؤلف والكتاب لكنه لا يشير إلى الصفحة (وهذا خلاف صنيعه في بحوثه الأخرى) ومن ذلك أنه جعل الضعف الأدبي الذي اعترى الحجاز ناتجًا عن الفتن والقلاقل، ونسي أن لذلك أسبابًا أخرى كان من أهمها هجرة ذوي الطموح، وطلاب الشهرة في

الأدب والسياسة والعلم إلى مراكز الخلافة، وعندي أن هذا أهم الأسباب وأقواها، إلى ما أصيب به الحجاز من إهمال ذوي الأمر، والنقص من شأنه وبخاصة في العصر الثاني العباسي وما بعده.

ولقد كانت تلك البحوث التي دأب الرجل على نشرها محل عناية مزامنيه وإعجابهم، كما لقيت من المعارضين من ناقشها على صفحات الصحف، ومنهم الذي رمز لنفسه بكلمة (ناقد).

فلقد أشار ابن عبدالمقصود إلى شعر الغزل، وفي تلك الإشارة وصف شعر ابن أبي ربيعة بأنه يتسم بالعفة، ولعله كان يعني أنه من باب الشعر العذري وأظنه كذلك، ولكن هذا لم يرق (ناقداً) فكتب مقالاً نشره في صحيفة (أم القرى) عمد فيه إلى نقض ما أثبت الأستاذ محمد سعيد، ويبدو لي-والله أعلم- أن منطلق حديثه الغيرة على الأخلاق وهذا منحنى حسن ما لم يصطدم بحقائق موضوعية، ومما ورد في قول هذا الناقد (وغريب من الأخ الأديب أن ينسى أو يتناسى ماضي الشعر العربي في العصر الجاهلي فيدعي أن شعر الغزل - أحد ضروب عديدة دخلت على فن الشعر لم يكن متأثراً بها، بل لم يكن يعرفها، وأغرب من هذا أن يتخذ من شعر الأحوص والعرجي مرآة صادقة لتمثيل حياة اللهو والمجون في المدينة والطائف، ثم يتخذ في الوقت نفسه من شعر ابن أبي ربيعة مرآة تعكس ثوب العفة الذي كان يغشى حياة اللهو المكية)(٢٤). وذلك تعليق على قول محمد سعيد عبدالمقصود؛ (قد دخلت ضروب عديدة على فن الشعر لم يكن متأثراً بها، وإذا شئت فقل لم يكن يعرفها فظهر الشعر السياسي والنقائض والشعر الغزلي.

ولقد كانت أغراض هذا الشعر الغزلي تختلف باختلاف الوسط والبيئة التي يقال فيها، فبينما نجد في شعر ابن أبي ربيعة حياة الدعابة واللهو نجد عليها مسحة من العفة تصور لنا الحياة المكية يوم ذاك بخلاف الحياة الطائفية والمدنية، فإنا نجد في شعر العرجي إباحة ومجوناً، وفي شعر الأحوص دعابة ولهواً، وكلاهما قد تجاوز الأدب المكشوف بمراحل وهذا يرجع إلى أن حياة اللهو في الطائف والمدينة كانت

غيرها في مكة)(٢٥).

وعندي أن خوجة لم يجهل وجود الغزل في العصر الجاهلي وإنما أراد أن هذا الضرب من القول قد توقف في صدر الإسلام فجاء العصر الأموي فنبهه وأعاده إلى الحياة الأدبية من جديد، ومثل هذا القول يقال في الشعر السياسي أيضًا، ذلك أن الأشعار القبلية وكذا المناقضات في صدر الإسلام ما هي إلا شعر سياسي.

أما ظاهرة التبذل التي غشيت المدن الحجازية أو قل بعض جوانب الحياة الاجتماعية في تلك المدن أيام بني أمية فأمر معروف لا يقبل الجدل، وإن كان الباحثون، بخاصة من أهل هذا الزمان، قد بالغوا في ذلك حتى صوروا الحياة في مدن الحجاز صورة تبدو فيها وقد تحولت إلى مسارح للهو والعبث والتهتك وهذا باطل وضلال، واتهام لأهل ذلك الزمان بما هم منه براء.

ومما يلحق البحث الأدبي ما نشر بقلم الرجل في الصحف المحلية وبخاصة (أم القرى) و(المنهل)، ومنه إسهامه في استفتاءين طرحهما صاحب مجلة المنهل الشيخ عبد القدوس الأنصاري - رحمه الله- على بساط البحث أمام أقلام الأدباء.

أولهما: كان عن الأثر الذي تركه الأدب الحديث على أقلام الحجازيين.

وثانيهما: كان حول الكتب والصحف التي ننصح الناشئة بقراءتها.

ولقد أسهم ابن عبدالمقصود في الاستفتاءين فجاء جوابه عن الأول تصويرًا جيدًا لحياة الأدب الحجازي في منتصف القرن الرابع عشر الهجري.

كما جاء الثاني دالاً على ثقافة الرجل وسعة اطلاعه على الكتب والصحف والمجلات، وإن كان في ذلك يمثل رأي الرجل المثقف لا المتخصص يدل على هذا مزجه في الاختيار بين كتب الحديث والتفسير والتاريخ والأدب وغيرها من فروع المعرفة.

وكما كان باحثًا مبدعًا، وكاتبًا مجودًا، كان كذلك خطيبًا مفصحًا ومرتجلاً قديرًا يقول على البديهة مثل ما يكتب مستأنيًا، ومن ذلك خطبته التي ارتجلها في حفل افتتاح مدرسة العلوم الشرعية، وكانت قد وجهت اهتمامها، بادئ ذي بدء،

إلى الخطابة لمسيس الحاجة إليها.

وفيها حثه على الخطابة التي يعد فيها من المحسنين، وقد جاء هذا الحث في قوله(٢٦): «يسرني أن أشاهد افتتاح مدرسة العلوم الشرعية لدرس الخطابة في عام ١٣٥٧هـ، وهذا الفن الذي اهتم به الغربيون اليوم اهتمامًا عظيمًا، لما لمسوه من الفوائد الجمة، وأهمله العرب اليوم إهمالاً فظيعًا، إن هذا الفن لم يك للغرب، بل هو للعرب قبل أن يكون للأوربيين، وللإسلام قبل أن يكون للغرب، فنحن إذا اعتنينا بهذا الفن فإنما نعتني بتراث آبائنا الذي أضعناه بعد أن أخذه الغربيون عنا وأصبحوا لا يعتمدون على شيء كاعتمادهم عليه، فهم بالخطابة يؤثرون على قلوب شعوبهم، ويصلون إلى بغيته فيحاربوننا بها، ويحاربوننا بسلاحنا.

إن الخطابة فن جليل، وله قواعد وأصول، وليست الخطابة الأصوات المرتفعة والجعجعة المزعجة، لقد سمعت كثيرًا من الخطب في شتى المدارس والمحافل فكانت أشبه بالندب في المآتم».

كلمة أخيرة:

أريد التذكير بحقيقة ثابتة، وهي أن أصحاب المواهب في أي مجتمع كثيرون، أما أصحاب المواهب المتعددة فهم قلة.

هذه حقيقة ما أحسب أحدًا يماري فيها.

وحين يبرز متعدد المواهب يظهر في أهل زمانه من ينفس عليه ممن لم يهبهم الله مثل ما وهبه، وبخاصة من كانت له موهبة ما يراها شيئًا كبيرًا يميزه، ويؤهله لمثل منزلة متعدد المواهب.

هذا هو شأن محمد سعيد خوجة مع كثير ين من أهل زمانه، فهم أصحاب مواهب ولكنها ليست متعددة كما هي عند خوجة، وهذا هو تفسير مواقف بعضهم منه، وما كان لهم أن يفعلوا لو أنهم أنصفوا أنفسهم وأنصفوه.

***

الهوامش:

١- صوت الحجاز - البلاد السعودية، العدد ٥٧٢ تاريخ٥/ ٦/ ١٣٩٦هـ.
٢ - عن الشيخ حافظ الحسيني.
٣ - عن أحمد السباعي وآخرين مشافهة.
٤ - عن الشيخ حمد الجاسر مشافهة.
٥ - انظر في ذلك في آخر موضوع: ((دخول الملك عبد العزيز الحجاز))
٦- نسبة إلى جدة.
٧ - جريدة أم القرى العدد ٣٨٧، تاريخ١٠/ ١١/ ١٣٥١هـ.
٨- الآتي عن صهره محمود حافظ الحسيني مشافهة.
٩- جريدة أم القرى، العدد٣٧٩، تاريخ ١٠/ ١١/ ١٣٥٠هـ.
١٠- جريدة أم القرى، العدد٣٩٤، تاريخ٢٦/ ١/ ١٣٥١هـ.
١١- جريدة أم القرى، العدد٣٩٢، تاريخ١٢/ ٢/ ١٣٥١هـ.
١٢- جريدة أم القرى، العدد١٦٠، تاريخ٩/ ٣/ ١٣٥٤هـ.
١٣- جريدة أم القرى، العدد٥٧٠، تاريخ١١/ ٨/ ١٣٥٤هـ.
١٤- جريدة أم القرى، العدد ٢٩، تاريخ٢٣/ ٦/ ١٣٥١هـ.
١٥- جريدة أم القرى، العدد ٣٠، تاريخ١/ ٧/ ١٣٥١هـ.
١٦- جريدة أم القرى ، العدد ٣١، تاريخ ٨/ ٧/ ١٣٥١هـ.
١٧- جريدة أم القرى، العدد٦١١، تاريخ٣/ ٦/ ١٣٥٥هـ.
١٨- جريدة أم القرى ، العدد٦١٥، تاريخ٢/ ٧/ ١٣٥٥هـ.
١٩- جريدة أم القرى، العدد٦١٨، تاريخ٢٣/ ٧/ ١٣٥٥هـ.
٢٠- جريدة أم القرى، العدد٦٢٠، تاريخ٧/ ٨/ ١٣٥٥هـ.
٢١- ألوان- طه حسين- طبعة دار المعارف المصرية الصفحة الرابعة، ص٤٣ .
٢٢- انظر ذكر الأصمعي ص١٦ .
٢٣- انظر ذكره لكتاب الآداب العربية في القرن التاسع عشر، ص ٣١ .

٢٤- جريدة أم القرى، العدد ٦٢٨، تاريخ ٢٣/ ٧/ ١٣٥٥هـ، ص٣

٢٥- جريدة أم القرى، العدد ٦٢٨، تاريخ ٢٣/ ٧/ ١٣٥٥هـ، ص٣، و وحي الصحراء.

٢٦- نقلاً عن الشيخ محمود حافظ الحسيني.